عبدالمحسن سلامة علاء ثا

عندما سهرت للصبح مع مراسلى الصحف العالمية فى «مولد اليهود» فى المحلة!

1 ديسمبر 2018

عزت السعدنى



قبل أن نكتب سطرا واحدا.. علينا أن نسمى ونبسمل ونحوقل ونستعين بالله أن يبعد عنا عيون الحاسدين ونوايا و«قر ونق نفوس الحاقدين».. وما أكثرهم فى زماننا هذا.. ولا ننسى أن نصلى ركعتين ونستعين بالله تعالى تبركا وحيطة قبل أن نكشف الستار عن هذه الرحلة العجيبة التى قمت بها فى الشهور الستة الأولى من دخولى عتبة الأهرام العظيم الشامخ دائما.. المحلق طول عمره فى سماء كل ما هو حق وصدق.. وكل ما هو رائع وجميل فى بلاط صاحبة الجلالة «الصحافة» على مدى 143 عاما اللهم يزيد اللهم يبارك..

على أى حال لنهبط معا من سماء الكلمة الطيبة إلى أرض الواقع..

نحن الآن فى أوائل شهر مايو من عام 1960 الذى يجلس على سدة الحكم هو الزعيم جمال عبد الناصر كل شيء يسير على ما يرام.. ولا يوجد ما يعكر صفو الحياة فى بر مصر كله.. الجالية اليهودية تعيش بيننا كما يعيش المصريون.. لم تكن نكسة 1967 قد جاءت بعد.. كان باقيا على قدومها بالحزن كله سبع سنوات طوال.

كان كل شيء أيامها جميلا ورائعا وطيبا وخيرا وعظيما.. الوطن والناس.. حتى العصافير على الشجر.. كانت لا تكف عن الصوصوة والغناء..

لم يكن التليفزيون قد وصل إلى حياتنا بعد.. كان باقيا على وصوله أبيض وأسودا أربع سنوات كاملة.. وكانت الإذاعة المصرية أيامها هى شمس مصر المشرقة على العالم العربى كله ورئتها التى تتنفس منها.. لم يكن صوت العرب بصوت أحمد سعيد الجهورى قد ظهر على الساحة العربية بعد..

فى أول مايو من عام 1960 فيما أذكر . أرسل إلى حتى باب الأهرام المجاور للإذاعة فى شارع الشريفين.. العزيز الغالى عمنا حسنى الحديدى وكان يادوب مذيعا صغيرا أيامها قبل أن يصبح كبير المذيعين فى الإذاعة المصرية.. عربة الإذاعة فيها مذيع لا أذكر اسمه الآن قال لى بالحرف الواحد: أركب.. سوف تذهب معنا إلى مولد سيدى الامشاطى فى المحلة.. سوف تحقق يا عزيزى نصرا صحفيا لم يسبقك إليه أحد.. اركب؟

وركبت وذهبت.. وسهرت فى مولد سيدى الأمشاطى وهو ناسك يهودى عاش على تراب مصر . بحساب عام 1960 الذى ذهبت فيه إليه . 797 عاما.. لو أضفنا إليهما كم من سنين وأعوام حتى نصل إلى العام الذى نعيش أيامه الآن.. يبقى الحاصل بين أيدينا: 797 سنة+ 58 سنة مرت على نشر هذا التحقيق الصحفى = 855 سنة هى عمر هذا المولد فى حياتنا.. يا خبر!

يا خبر هذه من عندكم أنتم.. حتى ولو لم تنطقوا بها؟

***

وهذا أيها السادة والسيدات هو ما كتبته يومها بالحرف الواحد عن مولد الأمشاطى هذا وكان حديث الميديا العالمية كلها أيامها.. الذى كان يهود مصر يحتفلون به ونحن معهم نشاركهم السهر والفرجة . عندما كانوا يعيشون بيننا كمصريين مثلنا طوال 800 عام حتى عام ظهور هذا التحقيق فى الأهرام فى بداية مشوارى الصحفى..

ماذا قلت يومها؟ وماذا كتبت يا ترى؟

دعونى أقدمه لكم كما كتبته أيامها دون تدخل منى بعد سلسلة الأحاديث عن الموالد.. مولد النبى الكريم قبل أيام ومولد سيدنا الحسين رضى الله عنه.. ومولد السيدة زينب رضى الله عنها.. ومولد السيدة نفيسة من آل بيت النبى محمد بن عبد الله؟.

قبل أن أنسى لقد أفرد عمنا وتاج راسنا كمان صلاح هلال رئيس قسم التحقيقات أيامها الصفحة الثالثة له كاملة مع اشارة بالبنط العريض فى الصفحة الأولى.. لأنه كان حديث العالم والصحافة العالمية التى نقلته عن الأهرام يومها.. اللهم لا حسد..!

* * *

وهذا ما كتبته يومها وما نشره الأهرام فى صفحته الثالثة..بالكلمة والعنوان والصورة: دون أى تدخل منى:

> يطالع العالم صباح اليوم . من خلال 30 مراسلا أجنبيا فى القاهرة . صورة من «موالد» اليهود عند معبد «الأمشاطى» فى مدينة المحلة..

بات مراسلو الصحف الأجنبية أمس فى المحلة مع ألوف من اليهود الذين يعيشون فى الاقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة لينقلوا الصورة.. صورة اليهود وهم يمارسون فى يسر وفى هدوء . طقوس الصلاة واحتفالات العقيدة ومولد سيدى الأمشاطى»..

الليلة الكبيرة.. فى مولد سيدى الأمشاطى أكبر قديس عند اليهود.

الناس.. كل افراد الجالية اليهودية اجتمعوا داخل قاعة الصلاة فى معبد القديس التى تكاد قبابها تختفى فى قلب حوارى ودروب المحلة..

وهذه هى المرة الـ 797 التى يحتفل فيها اليهود بمولد قديسهم.. عاما بعد عام.


مراسلو الصحف الاجنبية باتوا امس ليلة مثيرة..
فى مولد اليهود
تدفع ٢ جنيه فقط وتأخذ ملابس وأقمشة بـ ١٤ جنيها
هذه ميزة حسابك الجارى بشركة شاهر

■ صورة ضوئية من التحقيق كما نشر فى الأهرام عن مولد اليهود


حوارى داخل المعبد مع إحدى الزائرات

30 صحفيا أجنبيا

لكن الجديد فى هذه المرة ان 30 صحفيا امريكيا والمانيا ومجريا وصينيا مكثوا فى مكان الاحتفال أكثر من 14 ساعة.. عاد كل واحد منهم بعدها الى صحيفته باكثر من قصة.. وأكثر من حكاية.. وأكثر من رأى..

ها هو هربرت فون فلنهايم (47 سنة) الصحفى الألمانى مدير الوكالة الألمانية للأنباء يقول وهو يفرك عينيه من طول السهر :

. لا أدرى على وجه الحقيقة هل هذا الذى حدثنى عنه شماس المعبد عن معجزات القديس الأمشاطى حقيقة أم هو لون من الأسطورة.. هل حقيقة استطاع قديسهم أن يشفى المرضى؟.. ويعيد للذين فقدوا أبصارهم نور عيونهم مرة أخرى..؟ وهل حقيقة ان هذا القديس أعاد نسخة التوراة التى كتبها بيده منذ نحو 700 عام على جلد غزال .. أعادها الى المعبد الذى يرقد فيه جثمانه فى مدينة المحلة.. بعد أن اخذها بعض اليهود الى معابدهم فى القاهرة.. هذا شىء اقل ما يوصف به أنه غريب .. غريب حقا!..

لا صلاة للسيدات

ولم يكد الصحفى الالمانى ينتهى من كلماته حتى دق شماس المعبد بعصاه على خشبة الهيكل الذى وضع فوقه اقدم توراة فى مصر كتبها القديس الأمشاطى منذ نحو 7 قرون بخط يده على صفحات من جلد الغزلان..

كانت الشمس قد مالت نحو الغروب وهذا معناه ان صلاة المغرب سوف تبدأ بعد لحظات..

وصعد إلى هيكل المعبد 10 من المصلين ليقوموا بصلاة المغرب وهم وقوف.. ينشدون بعض آيات من التوراة بصوت يغلب عليه النغم والايقاع.

ووقف كل من فى المعبد من الرجال.. أما السيدات فلهن الحق فى القيام أو القعود وقت الصلاة.. لأن الديانة اليهودية لا تسمح لهن . ابدا بمشاركة الرجال الصلاة.. أو . حتى الصلاة بمفردهن.. فالرجال . وحدهم . لهم الحق فى عبادة الله.. أما حواء فتقوم بخدمة الرجل ورعاية أولاده فقط.. وهذا يغنيها عن الصلاة !

وتصيح زوجة الصحفى الألمانى فون فلنهايم.. عندما تسمع هذه الحقيقة .. كيف يسمحون للمرأة بأن تدخل المعبد.. ثم يحرمونها بعد ذلك من حق الصلاة؟

يبتسم الشماس الكبير الذى يحرس التوراة الأثرية ولا يجيب..

والساعة تقترب من منتصف الليل.. والصحفيون الأجانب مازالوا وقوفا على ارجلهم.. وذهب كومنيوش المجرى يبحث عن كرسى لزوجته.. وقاعة المعبد ليس فيها مكان لقدم.. الصغار يزاحمون الكبار فى رش ماء الورد على التوراة المقدسة المحفوظة داخل علبة من الفضة والفتيات يزاحمن الشباب الذين يلبسون الطواقى الشبكية فى اضاءة أكبر عدد من الشموع... واشعال اكواب الزيت ذات المشاعل... والهمس بأمنيات حلوة تدغدغ مشاعرهن.

وتبتسم ليلى طويل (18سنة) وهى تقول:

. لقد اضاءت اختى ألين فى العام الماضى مشعلا صغيرا داخل كوب من الزيت.. ولم يمض عليها العام حتى حضر العريس يطرق بابنا.

وتسكت ليلى لحظة لتقول:

. ولقد اضأت أنا الليلة شمعتين باسمى.

وبدأ المزاد...

والمعبد يخنقه الزحام.. ورجال الإذاعة يمنعون فتح أى نافذة حتى لا يتسرب الصوت إلى داخل القاعة.. والشموع المشتعلة تزيد الجو اختناقنا... وزوجات الصحفيين الأجانب وجدن بعد جهد عددا قليلا من الكراسى جلسن عليها فى هدوء.. أما الصحفيون من الرجال فمازال فى ابدانهم بقية من نشاط وقليل من حيوية الشباب.

ويرن فى قاعة المعبد جرس رفيع.. ويقف الدكتور جاك اسكنازى حاخام المعبد ليعلن بداية «اليزفوت» أى المزاد الكبير..

وتستعد فرقة الموسيقى النحاسية لاهداء السلام.. للمتزايدين ويرسو المزاد على «الخواجة» ستون.. ويضرب له السلام، ثم تسكت الآلات النحاسية.. لتبدأ من جديد تحية لمشتر آخر... وعزفت الموسيقى السلام 12مرة، وفى كل مرة يشترى واحد من الحاضرين نسخة من التوراة..

الموكب الراقص

وعندما أعلن الدكتور جاك الانتهاء من بيع آخر نسخة من التوراة ارتفع صوت الموسيقى صاخبا بموسيقى راقصة مزيج من البشارف التركية... والطقاطيق العبرية... ولمحات سريعة من الموسيقى الشرقية...

وبدأت عملية «الجلونة» أى الدوران حول منبر المعبد الذى يتوسط قاعة المعبد..

وحمل الذين اشتروا نسخ التوراة المعلقة بغطاء فوق رءوسهم.. وراحوا يدورون بها حول منبر المعبد... وهم

يرقصون على نغمات الموسيقى الصاخبة.. ويغنون بعض الأهازيج الدينية ذات الترانيم... وميكروفون الإذاعة ينتقل من اليمين إلى اليسار ليتابع الموكب الراقص.. وعيون الصحفيين الأجانب... رغم ظلال النوم الذى يخيم عليها... تلمع هنا وهناك.. وزوجاتهم يهززن رءوسهن على إيقاع خطوات الراقصين.. وقاعة المعبد تحولت إلى كتلة من النغم والإيقاع والغناء والضحكات والترانيم الدينية. وتجئ الساعة الرابعة صباحا... ويفرغ الموكب كل ما يحمله من ضجيج... ليتحول إلى همسات وكلمات ونداءات متفرقة هنا وهناك داخل القاعة الواسعة. ويحمل كل مشتر نسخة من التوراة نسخته الى هيكل المعبد حيث يضعها فى رفق وحنان وكأنها طفل صغير نائم بعد طول بكاء..ليعود فى خطوات بطيئة وعلى وجهه فيض من الاشراق.. وهكذا تعود النسخ الـ 13 من التوراة الى مكانها.. كل عام داخل حافظاتها من الفضة والخشب.. وكما مرت عليها 797 عاما تستمر عليها أعوام أخرى وأعوام.. والناس من الزوار يشترونها فى أول السهرة ليردوها عند الفجر.. ويتركون نقودهم. لتخصيص مزيد من العناية للمعبد الذى يجتمعون فيه مرة واحدة كل عام.

بركاتك ياقديس..

وينتهى اليزفوت (أى المزاد) لتبدأ عملية أخرى.. وهى التبرك بالولى أو القديس..

وصعدت سيدة نصف مشلولة تسندها ابنتها الكبرى الى هيكل المعبد حيث ارقدها الشماس الأكبر اسفل التوراة.

وأخذ يدعو لها ويتلو بعض المزامير والأدعية لبضع دقائق.. ثم حل محلها شيخ مهدم جاء يطلب قليلا من الراحة من آلام المرض الذى اثقل ظهره. وأمهات حملن اطفالهن.. للتبرك بمقام القديس.. والشماس يرش على رءوسهم ماء الورد وابتسمت زوجة الصحفى الألمانى هربرت فلتهايم وقالت:

. لو كان ولدى فريدريك معى هنا.. لارسلته الى هذا الشماس ليباركه ويضع بين خصلات شعره بضع قطرات من ماء الورد.

صلاة.. وطعام

وعندما لاحت تباشير الفجر عند الأفق جلس 10 من المصلين حول مائدة وضع فوقها 10 نسخ من الزبور الذى يحتوى على مزامير سيدنا داوود.. وبضعة اطباق من الكعك واكواب الشاى..

وبدأت القراءة فى المزامير المائة والخمسين.. لطرد كل روح شريرة دخلت الى المكان الطاهر.. حتى يصبح طاهرا طول العام.. ثم يسكت الجميع لحظة لينفخ كبيرهم فى مزمار مصنوع من قرن خروف لطرد باقى الأرواح الشريرة.. ومن خلال القراءة والنفخ فى المزمار يتناول الحاضرون الكعك والشاى..

وعندما التقى عقربا الساعة عند السادسة والنصف صباحا.. انتهى الاحتفال الدينى الكبير.. وانتهت القاعة الواسعة الى رجال يغالبون النوم.. ونساء يتثاءبن.. وأطفال يغطون فى نوم عميق.. والقاعة يغلفها الهدوء.. والأسطى صلاح سائق عربة الاذاعة الذى رفض ان اعود معه الى القاهرة فى عربة الاذاعة وركبت يومها قطار درجة ثالثه ـ يحمل ميكروفون الإذاعة الى الخارج.. والصحفيون الأجانب يسحبون أرجلهم المتعبة فى بطء الى سياراتهم عند الباب.. فى طريقهم لكى يبعثوا من القاهرة صور اليهود وهم يمارسون . فى يسر وهدوء . طقوس صلاتهم واحتفالات عقائدهم.. لكل الحب ولكل الحريه !

عزت السعدني

هكذا كانوا يكتبون أسماءنا أيامها فى آخر كل تحقيق.

***

كانت أياما لا تنسى.. لن تمحى من ذاكرتنا أبدا.. وكنا ايامها رفاق وطن واحد.. قبل أن يلبسوا هم الوجه الآخر.. القبيح هذه المرة عندما اشعلوا حرب 1967 ، ولكن تلك حكاية أخرى ليس هذا وقتها ولا مكانها..

((ويحمل كل مشتر نسخته من التوراة.. إلى هيكل المعبد، حيث يضعها فى رفق وحنان، وكأنها طفل صغير نائم بعد طول بكاء..ليعود إلى مقعده فى خطوات بطيئة وعلى وجهه فيض من الأشراق..))

Email:asaadany@ahram.org.eg